﴿ الجزء الاول ﴾ ﴿ السنة الثالثة ﴾

المعتز

مجلة علمية تهذيبية تاريخية صحية

﴿ الاسكندرية — اغسطس (آب) سنة ١٩٠١ — ربيع الثاني ١٣١٩ ﴾

جبل طارق

﴿ حديث حديث يذكر بالحديث القديم ﴾

(واني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر)

مشاهير المتقدمين والمتاخرين

(في كل جزء شهير وشهيرة)

مجد الاسلام القديم

﴿ تاريخ الاندلس من اوله الى آخره ﴾

(ومشاهير رجال الاسلام الذين عاشوا في ذلك العصر)

﴿ سلطان مراكش الحالي ﴾

حنين الى مجد قديم · العناصر التي تالفت منها اسبانيا قبل المسلمين · اوروبا تلميذة الفينيقيين · غزوة الاندلس على يد طريف وطارق وموسى بن نصير وافتتاحها · معاملة العرب المغلوبين · العزم على فتح اوروبا والعودة الى الشام عن طريق البحر الاسود · الواقعة الفاصلة بين التمدن الاندلسي والاوروبي · ثلاثة ابيات شعر تولي صاحبها امارة الاندلس · بنو امية و بلوغ التمدن الاندلسي اعلى ذراه في عهدهم · اوروبا تلميذة مسلمي الاندلس في العلم والصناعة والفلسفة · اضطهاد الدين للعلم · زوال عز عظيم · سلطنة المغرب اليوم · جبل طارق القديم والحديث

حنت اللغة العربية في الشهر الماضي شوقاً الى مجدها القديم · فقد سمعت في كل جرائد العالم ذكر «طارق» و « جبل طارق» واسبانياو « وسلطنة المغرب » والوفود التي اوفدتها هذه السلطنة الى انكلترا وفرنسا والمانيا فذكرت ذلك العزّ المعهود والظلّ الممدود · ذكرت طارق وفتحه الاندلس (اسبانيا) وليالي الامير عبد الرحمن فيها وازدحام العلماء والشعراء والكتاب في بابه · والمصنوعات الاندلسية التي كانت تتوزع من المصانع والمعامل العربية الاندلسية في الغرب والشرق · والفنون العربية الاندلسية التي لا تزال آثارها في غرناطه واشبيلية وطليطلة الى هذه الايام · ووصول خيول العرب والمغاربة الى مدينة ليون (فرنسا) فاتحة غازية · وبلوغ امراء الاندلس من الجاه والسطوة مبلغاً صاروا معه يعيدون ملوك الافرنج الى عروشهم اذا انزلتهم رعيتهم عنها وصارت دول الارض لترضاهم وتوفد الوفود اليهم

كل ذلك ذكرته اللغة العربية في الشهر الماضي فحق لها ان تنشد قول الشاعر

واني لتعروني لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

وفي الحقيقة انها ذكرى تسرُّ وتُنسي المتأمل شيئًا كثيرًا من احزان الحالة الحاضرة. وسنقلّب في هذه المقالة صفحات ذلك الزمن المجيد ملخصين تاريخ فتح الاندلس وذاكرين طرفًا من التمدن العربي الذي بلغ فيها مبلغًا لم يبلغه التمدن الافرنجي الى ذلك الحين ثم نتطرق الى ذكر طارق وجبله القديم والحديث وبلاد المغرب وما كان بينها وبين امراء الاندلس وبغداد اتمامًا للفائدة فنقول وعلى الله الاتكال

﴿ اسبانيا قبل الفتح الاسلامي ﴾ لاسبانيا في التاريخ خمسة ادوار وقد صارت بالحرب الاميركية الاخيرة ستة . اما دورها الاول فهو الدور القديم الذي كانت فيه قبائل متفرقة . وقد كان يسكنها على الارجح قوم يسمونهم « الايبيريين » ومن ذلك اشتق اسم اسبانيا فانه كان من قبل « هباريا » ثم صار اسبانيا ومعنى هباريا « بلاد الغربيين » اما مؤرخو العرب وفيهم ابن الاثير فانهم يقولون « ان النصارى يسمون الاندلس اشبانيه باسم رجل صُلب فيها يُقال له اشبانس وقيل باسم ملك كان بها في الزمن الاول اسمه اشبان بن طيطس وهذا هو اسمها عند بطليموس »

اما قبائل الايبيريين الذين تقدم ذكرهم فقد وقع الخلاف في اصلهم . فمن قائل انهم قدموا من جبال القوقاز حيث لا يزال لهم اثر فيها وبناء عليه فانهم يعتبرونهم طليعة الاسيويين الذين اغاروا على بلاد اوربا منذ القديم . ومن قائل انهم من جنس تُتوني وان لغتهم فرع من اللغة التتونية . وغيرهم يزعم انهم من جنس افريقي عبر مضيق جبل طارق الذي يفصل افريقيا عن اسبانيا واقام فيها

وكان الفينيقيون اول من اكتشفوا اسبانيا فان هذه الامة التجارية كانت في ذلك الزمان تصنع ما تصنعه اوربا اليوم فكأنّ اوربا تلميذة لها . وذلك انها كانت تصنع في معاملها في صيدا وصور وسواها مصنوعات كالمصنوعات التي تُتجر بها اوربا اليوم مع الزنوج

﴿ الجامعة ﴾ اعتمدنا في كتابة هذا التاريخ العظيم الفائدة والجليل الشأن على مصادر مختلفة اهمها الكتب الآتية : تاريخ ابن الاثير وتاريخ ابن خلدون وتاريخ ابي الفداء وتاريخ الاندلس للمؤرخ باولوسكي وتاريخ غرناطة وقرطبة للمسيو كات وغيرها . ونحن واثقون بان القراء سيطالعونه بلذة وسرور ينسياننا شيئًا من التعب الذي عانيناه في المراجعة والمقابلة والتنقيب . وحسبنا ذلك

والقبائل مثل الآنية الزجاجية الملونة والانسجة المصبوغة واشياء كثيرة لزينة الرجال والنساء ثم انها تحمل هذه السلع التافهة وتطوف بها الارض المعمورة لتقايض عليها بحاصلات نفيسة. وقد وصلت السفن الفينيقية الى اسبانيا في القرن الرابع عشر او الخامس عشر قبل الميلاد المسيحي اي منذ ثلاثة آلاف وخمسمائة عام فاحسن الفينيقيون معاملة اهلها خلافاً لما صنعه الاسبانيون في اميركا حين اكتشافهم اياها وعرضوا لهم سلعهم فسرّت قبائل الايبيريين بها وقايضتهم عليها بما كان لديهم من زيت الزيتون والخمر والصوف والمعادن الذهبية والفضية التي لم يكن الاسبانيون يعرفون لها قيمة . وقد قال سترابون « ان ما وجد في ارض اسبانيا من الذهب والفضة والنحاس والحديد لم يوجد له مثيل في جودته وكثرته في جميع اقطار العالم » . فمن هناك كان الفينيقيون يعودون بالخيرات الكثيرة

وقد بنى الفينيقيون على شواطىء اسبانيا وافريقيا كثيرًا من المراكز التجارية فصارت بعد ذلك مدناً عامرة . منها في اسبانيا « قادر » او قادس وهي قادش كما يسميها العرب ومالقه وقرطبه ومعناها (بلاد الزيتون) لكثرة ما كان منه فيها. وكانت هذه المدن الثلاث اهم مراكزهم التجارية . وكان السكان على اتفاق تام مع ضيوفهم اذ لم يكن لهؤلاء الضيوف سوى اغراض تجارية خلافاً للمستعمرين في هذا الزمان الذين يسعون في استعمارهم الى التهام البلاد وثروتها معاً . اما الفينيقيون فانهم كانوا لحكمتهم يكتفون بالثروة ويتركون البلاد لاهلها

وكان اليونان يزاحمون الفينيقيين في التجارة في ذلك الزمان فلم يلبثوا ان تبعوهم الى اسبانيا فترك لهم الفينيقيون شاطىء اسبانيا الشرقي فانشأ فيه الرودوسيون مدينة « روزا » وذلك في القرن الحادي عشر قبل الميلاد المسيحي ثم جاء الفوسيون وهم من يونان (ايونيا) في اسيا الصغرى فبنوا مدينة امبوريا س ومعناها (السوق) واقاموا في (دنيا) هيكلاً للالاهة ديانا حامية افسس . فكان ذلك اول شعاع من اشعة التمدن التي دخلت الى اسبانيا

ثم سقطت فينيقية تحت ضربات نبوخذ نصر الفاتح الاشوري الذي خرب صور ملكة التجارة والبحار في تلك الايام فاصبحت جميع المدن التي انشأها الفينيقيون خارج بلادهم هدفاً لطمع الطامعين . فاغار قبائل التورديتانيين في اسبانيا على مدينة قادش الفينيقية فاستنجدت قادش بقرطجنة ابنة فينيقية واحدى مستعمراتها لان الفينيقيين هم الذين عمروا قرطجنة كما لا يخفى . فاحلت قرطجنة محل الفينيقيين بعد سقوطهم فوالت الاسبانيين

وحالفتهم وقد كانت تتخذ منهم جنوداً لمحاربة الرومانيين . ولولاهم لما استطاعت الثبات امام رومه وقتاً طويلاً

فلما راى السناتو الروماني هذا الخطر تلافاه بان ارسل قواده يوالون الاسبانيين ويحالفونهم فتردد الاسبانيون في بدء الامر ولكن بعضهم عاد فحالفهم فتمكن الرومانيون حينئذٍ من اسقاط قرطجنة فاصبحت اسبانيا بلاداً رومانية

وكان قد دخل الى اسبانيا قبائل جديدة من السلتيين فانضمت الى الايبريين وامتزجت بهم امتزاج الماء بالراح فصارت اسبانيا مؤلفة من عنصرين

ثم كانت غزوة برابرة الشمال للرومانيين في عام ٤٠٦ للميلاد المسيحي وهم بين جرمان وسلاف وتتر فطاف منهم فريق كبير في غاليا (فرنسا) وايطاليا حتى بلغوا جبال البيرينه التي على تخوم اسبانيا فدخلوا اليها في عام ٤٠٩ وامعنوا فيها سلباً وقتلاً وحرقاً . وقد قال ابن الاثير في كلامه عن فتح الاندلس « ثم دخلت عليهم (الاسبانيين) امة القوط (يعني الغوثيين امة الغوث) مع ملك لهم فغلبوا على الاندلس (يعني اسبانيا) فاقتطعوها من يومئذٍ عن صاحب رومه وكان ابتداء ظهورهم من ناحية ايطاليا شرق الاندلس » فصارت اسبانيا مؤلفة من اربعة عناصر : الايبريين والسلتيين وبرابرة الشمال والغوثيين . هذا فضلاً عن العنصر الفينيقي والعنصر القرطجني اللذين هما في الحقيقة واحد وان كانا اثنين . ولذلك قلنا في صدر الكلام ان لتاريخ اسبانيا خمسة ادوار : الاول دور الفينيقيين . والثاني دور الرومانيين . والثالث دور الغوثيين . والرابع دور المسلمين الذي قد بلغناه الآن

٢

﴿ ابتداء الفتح الاسلامي فيها ﴾ وقد اختلف المؤرخون في سبب هذا الفتح . فمن قائل ان الفتح الاسلامي كان عقاباً الهياً للغوثيين وملوكهم على افسادهم في البلاد وظلمهم للعباد . ومن قائل ان الفتح الاسلامي لاسبانيا كان نتيجة لازمة لاستيلاء المسلمين على افريقيا لان النزاع استمرّ شديداً بين كل القبائل التي عاشت على مرور الزمان فوق الشاطىء الافريقي والشاطىء الاوروبي من مضيق جبل طارق . ومن قائل ان احد امراء الغوثيين هو الذي استدعى العرب الى الاندلس انتقاماً من ملك الاسبان لانه اهان ابنته . ولعل هذا القول هو القول الراجح . قال ابن الاثير بهذا الشان : وكانت عادة امراء الاسبان انهم يبعثون اولادهم الذكور والاناث الى مدينة طليطلة ليكونوا في خدمة الملك ويتأدبوا بذلك فاذا بلغوا الحكم ازوج بعضهم بعضاً وتولى تجهيزهم . فلما ولي رذريق (يعني الامبراطور

رودريك) ارسل اليه يوليان (يعني الكونت جوليين امير سوتة وهي سبتة) ابنة له فاستحسنها رودريك« واعتدى عليها » فكتبت الى ابيها فاغضبه ذلك . وكانت افريقيا يومئذٍ في قبضة المسلمين والوالي عليها من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك هو موسى بن نصير وكرسيه في القيروان عاصمة افريقيا يومئذٍ . فكتب اليه يوليان يجامله و يستدعيه اليه فسار اليه فوصف له يوليان الاندلس و زين له غزوتها فكتب موسى الى الوليد يبلغه ذلك فاجابه الوليد «خضها بالسرايا ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الاهوال » . فكتب اليه موسى عن مضيق جبل طارق « انه ليس ببحر متسع انما هو خليج يبين ما وراءه » فكتب اليه الوليد « ان اختبرها بالسرايا اذا كان الامر ما حكيت » فبعث رجلاً من مواليه يقال له « طريف» في اربعمائة رجل ومعهم مائة فرس فعبر طريف المضيق في اربع سفائن ونزل في جزيرة الاندلس (١) فسميت جزيرة « طريف » لنزوله فيها . ولا يزال هذا الاسم اسم مدينة هناك الى هذه الايام ومن الكتاب من يعربها تاريف او تعريف لذهاب اصلها عنه .

٣

﴿ طارق وغزوته ﴾ ثم اغار طريف على الجزيرة الخضراء فاصاب غنيمة ورجع سالماً في رمضان سنة احدى وتسعين . فلما راى الناس ذلك تسرعوا الى الغزو طلباً للغنيمة . فدعا موسى والي افريقيا عاملاً له او مولى له كان قائد جيوشه يقال له « طارق بن زياد » و بعثه لغزوة الاندلس في سبعة الاف من المسلمين اكثرهم من البربر والموالي واقلهم من العرب . فساروا في البحر حتى انتهوا الى جبل شامخ على الشاطىء الاسباني فنزلوا فيه فسمي « بجبل طارق» الى هذه الايام

ثم زحف طارق من الجبل مع جيشه فطرد امامه الاسبانيين الذين وجدهم في طريقه وكانوا بقيادة تودمير و بعد ذلك قسم جيشه سرايا سرايا فسارت تقذف الرعب والخوف في قلوب السكان . فلما بلغ الامر الى الملك رودريك جمع من الغوث والاسبانيين الرومانيين مائة الف رجل في رواية ابن الاثير وقصد بها طارق . فاسرع طارق الى لم شمل السرايا التي فرقها وكتب الى رئيسه موسى ابن نصير يستنجده على الاعداء فامده موسى بخمسة الاف رجل فبلغ بهم الجيش العربي في اسبانيا ١٢ الف مقاتل . فلقي طارق بهذا

---

(١) والصواب انها شبه جزيرة او بجيجزيرة كما يقول العرب . و يسمي كتاب العرب اسبانيا بلاد الاندلس من قبيل تسمية الكل بجزء منه لان الاندلس اقليم من اقاليم اسبانيا

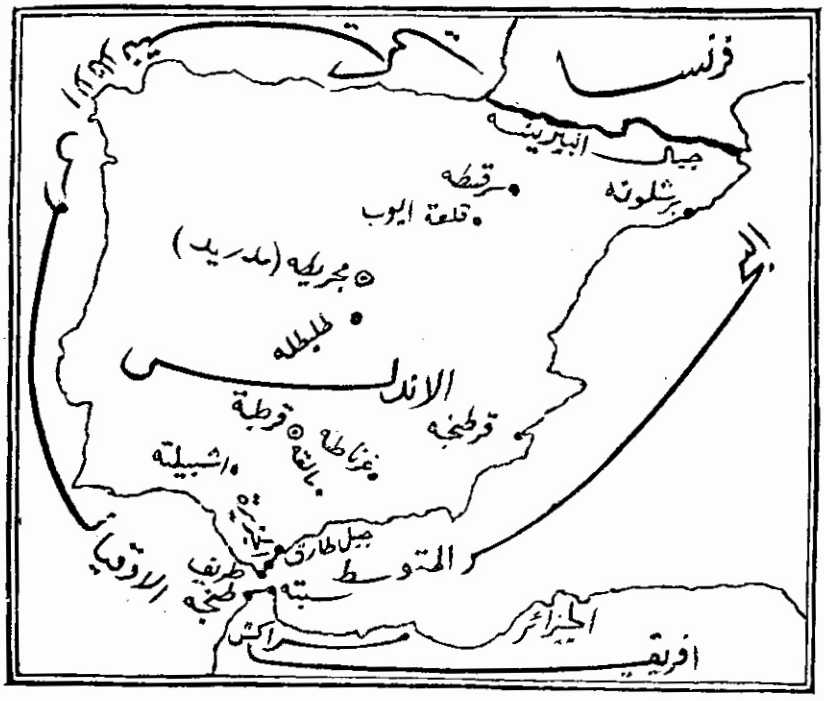

﴿ لمحة من خريطة اسبانيا ومضيق جبل طارق ﴾

الجيش جيش رودريك على ضفة نهر « كادالت » الذي يسميه العرب « لكه » وذلك قرب مدينة كسيرس التي يسمونها « شذونه » وكان الكونت جوليين في جيش العرب على ما يُقال يدلهم على عورة البلاد ويتجسس لهم الاخبار وكان في الجيش العربي ايضاً كثيرون من اليهود والمسيحيين الساخطين على الملك رودريك ورجال بلاطه . فاستمرّ القتال على ما يُقال ثلاثة ايام وانتهى بانتصار العرب ومقتل الملك رودريك من يد طارق ومنهم من قال انه لم يُقتل ولكنه ارتد بقسم من جيشه المكسور الى جبال غاليسيا . فاخذ طارق يطارد الهاربين ويُخضع البلاد بسرعة غريبة . وكانت هذه اشد معارك الفتح مع الاسبانيين

ولما سمع موسى بن نصير بما اوتي عامله طارق من الفتح العظيم حسده فجمع جيشاً كثيفاً من اهل الشام الذين كانوا معه ودخل الى الاندلس ليتمّ الفتح بنفسه وامر طارقاً بالكف عن القتال . فلم يكف طارق اما لانه رأى من الحكمة ان لا يُمهل الاسبانيين

فيلوا شملهم واما انه وجد من حقه ان يتم الفتح الذي بدأ به . فقسم جيشه ثلاثة اقسام ووجهها لفتح مالقه وقرطبه (كوردو) واستجه (اسيجا) ثم سار بنفسه لفتح طليطلة (توليدو) الواقعة في وسط اسبانيا فاحتلها ووجد فيها كثيرًا من النفائس والاموال . وكان جيش الاسلام مامورًا بعدم النهب والسلب وبحسن معاملة السكان وباطلاق حرية الدين لهم وبابقاء املاكهم وحفظ قضاتهم واستقلالهم النوعي على شرط ان يؤدوا الجزية التي كانت تختلف بين خمس دخل الرجل او عشره . ومع ذلك فقد كانت هذ الجزية اخف من الجزية التي كان يدفعها الاسبانيون للغوثيين . فضعفت همة الاسبانيين عن مقاومة العرب بعد ما راوه من حسن معاملتهم وفضلوهم على الغوثيين الذين كانوا يظلمونهم . وانما كانوا يخافون العرب خوفًا شديدًا لان طريقًا كما قال مؤرخو العرب اوهم الاسبانيين انه يا كلهم هو ومن معه رغبةً في ارهابهم فبقي الاسبانيون يحذرونهم ويذكرون هذا الامر حتى عرفوا دماثة اخلاقهم فتركوا ذلك الفكر الغريب الذي اثاره مزاح طريف

٤

﴿ غزوة موسى بن نصير عامل الوليد ﴾ اما موسى بن نصير فانه اوغل بجيشه في اسبانيا للفتح فقيل له تسلك طريق طارق فابى واستنكر ان يقلد عامله ويمشي على اثره . فسار الى قرمونه واشبيلية (سيفيل) وغيرها من المدن الاسبانية ففتحها . ووصلته في ١١ يوليو من ذلك العام (٧١٢ للميلاد) نجدات عظيمة من افريقيا . وكان همّ موسى عامله طارق الذي عصي امره . قال ابن الاثير « وسار موسى من مدينة ماردة في شوال يريد طليطلة فخرج طارق اليه فلقيه فلما ابصره نزل اليه فضربه موسى بالسوط على رأسه ووبخه على ما كان من خلافه ثم سار به الى مدينة طليطلة فطلب منه ما غنم » ثم ان موسى وابنه عبد العزيز وطارقًا عامله الذي عزله ثم ولاه القيادة ساروا كل واحد في جهة واخذوا يفتحون المدن ويخضعون السكان فلم يأتِ عليهم عام في اسبانيا حتى دوخوا البلاد من جبل طارق الى تخوم جبال البيرينه

وكان موسى بن نصير تحدثه نفسه بامر عظيم . فانه كان ينوي النزول من البيرينه الى غاليا « فرنسا » ومنها يفتح اوربا كلها ويعود الى الوليد في الشام عن طريق البحر الاسود . ولكن الوليد لم يمهله فاستدعاه اليه في عام ٧١٣ للميلاد مع طارق مولاه الذي اصبح مناظرًا له . فاستخلف موسى على الاندلس ابنه عبد العزيز ثم عبر البحر الى سبته « مقابل جبل طارق وتُدعى اليوم سوته » فاستخلف عليها وعلى طنجة ابنه عبد الملك واستخلف على افريقيا

واعمالها ابنه الكبير عبدالله ثم قصد الشام مع طارق لمقابلة الخليفة

فحكم عبد العزيز بن موسى في الاندلس حكمًا عادلاً استمال الاهالي اليه وحبب اليهم سلطة الاسلام . ولكنه لم يلبث ان عُزل بعد عامين لان خصومه اتهموه بالميل الى المسيحيين وبانه تزوج باجيليون ارملة الملك رودريك وهو امر لم يثبت عليه . واما ابن الاثير فانه يقول ان الجنود قتلته بامر الخليفة لحمله الناس على السجود له طوعًا لارملة رودريك . وبعد عبدالعزيز نادى رؤساء الجيش برجل يدعى « ايوب » واليًا للاندلس وكان شجاعًا واحد قواد الجيش . فنقل ايوب كرسي الولاية من اشبيلية الى قرطبة واخذ يطوف في جميع الاقاليم الخاضعة للاسلام لافتقاد الامن والعدل وانصاف الناس . ثم انه التفت الى عمارة المدن وراحة السكان لينسيهم شقاء الحروب فبنى على انقاض مدينة بلبلس التي هدمت في اثناء الفتح مدينة سماها « قلعة ايوب » واسمها اليوم عند الافرنج « كالاتايود » وكانت الاندلس تابعة لولاية افريقيا فعزل والي افريقيا ايوب عن ولاية الاندلس بامر من الخليفة وولى مكانه رجلاً يدعى « الحر » ثم عُزل الحر وولي « السمح » فاحصى هذا الوالي عدد السكان في الولايات الاندلسية وغزا غاليا « فرنسا » فوصلت جنوده الى مدينة طولوز الفرنسوية فجرى بالقرب منها بينه وبين الكونت اوديوس قتال شديد انتهى بمقتل ايوب وانكسار جنوده فعادوا ادراجهم الى الاندلس وقد سميت تلك الطريق « طريق الشهداء » لكثرة ما قتل من العرب فيها . وكان بين القواد الذين عادوا من واقعة تولوز قائد يُدعى عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي فنادى به الجيش واليًا للاندلس ثم خلفه عنبسة بن شحيم الكلبي فاقام عبد الرحمن تحت زعامته وكان عنبسة قرمًا عنيدًا فطلب الغاليين « الفرنسوبين » ليثأر منهم للذين قُتلوا في واقعة تولوز ففتح مدينتي قرقسونه وليون (١) ثم خرب شاطىء نهر الرون ونهر السون ونهب مدينة اوتين وعاد بكثير من الغنائم والاسلاب . ولكنه بينما كان عائدًا من غزوته تكاثر عليه الغاليون فقتلوه قرب مدينة نربون . فخلفه عزره بن عبدالله ثم يحيى بن سلامه ثم حذيفة القيسي وغيرهم ممن لا همة لهم فلم يفعلوا فعلاً يُذكر فاعيد الى الولاية عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي

---

(١) تولوز المذكورة آنفًا مدينة فرنسوية على مسافة ٧٥١ كيلومترًا من باريز وعدد سكانها اليوم ١٥٠ الف نفس وليون مدينة فرنسوية مشهورة وهي على مسافة ٥١٢ كيلومترًا من باريز وعدد سكانها اليوم ٤٥٠ الف نسمة . فما تقدم يظهر ان العرب وصلوا في غزواتهم الى قلب فرنسا تقريبًا

٥

﴿ الواقعة الفاصلة بين التمدن الاسلامي والتمدن الاوروبي ﴾ ومن الغريب ان كثيرين من مؤرخي العرب وفي جملتهم ابن الاثير اكتفوا فيما ذكروه عن عبد الرحمن بقولهم « فخرج عبد الرحمن غازياً ببلاد الافرنج (١) فقتل هو ومن معه شهداء » مع ان المعركة التي قُتل عبد الرحمن في اثنائها من اعظم المعارك وعليها كانت تتوقف سيادة العنصر العربي او العنصر الاوروبي في العالم ولذلك نذكرها بشيء من التفصيل وان كان المجال ضيقاً فنقول

لما ولي عبد الرحمن امارة الاندلس للمرة الثانية اخذ ينظم حملة قوية لغزوة الفرنك بها. وقد نادى بالجهاد في سبيل الله فتقاطر عليه الناس من سوريا ومصر وافريقيا قياماً بحق الجهاد . فاجتاز بهم عبد الرحمن جبال البيرينه وانقض على بلاد الفرنك كالصاعقة ففتح مدينة بوردو واخرب جميع امارة غسكونيا وكسر الكونت اوديوس الذي تقدم ذكره وهاجم مدينة بواتيه فاحرق احد احيائها . وكانت ضرباته شديدة سريعة فاسرع اليه شارل مارتل بقبائل الجرمانيين لرد غاراته عن البلاد فالتقى به في سهول قرب مدينة بواتيه فحدث هناك بين الجيشين قتال لم يحدث اشد منه. وقد كانت القبائل الجرمانية تلبس الحديد اتقاء للسلاح وقبائل العرب مكشوفة على خيولها الخفيفة والمغاربة نصف اجسامهم عارية فكان لهذا الخليط في ساحة القتال منظر غريب . وقد دام القتال فيما يقال يومين كاملين لان كل فريق منهما كان يعتبر هذه الواقعة حداً فاصلاً . غير انه كان في جيش العرب شيء لا يحصى من الغنائم والنفائس التي جمعها في غزوته وكان زعيمه عبد الرحمن قد مات في القتال موت الابطال فرأى الجيش من الحكمة ان يعود ادراجه لتولية زعيم مكانه وخوفاً من فقد النفائس التي في يده . فاقتلع اطنابه تحت جنح الليل وعاد الى الاندلس . ولو قدر عرب الاندلس على قهر اعدائهم في هذه الواقعة لفتحوا اوربا كلها وقتلوا التمدن الاوربي كما يُقتل الطفل في مهده . وكانت هذه الواقعة المشهورة في شهر اكتوبر من عام ٧٣٢ للميلاد المسيحي اي منذ ١١٦٩ عاماً . فيكون الجرمانيون والفرنك قد انقذوا اوربا من الهلاك

---

(١) تطلق اليوم لفظة « افرنجي » على جميع اهل الغرب من اوربا واميركا . ولكن لم يُقصد بها في الاصل سوى « الفرنك » وهم الغاليون الفرنسويون الذين وقفوا في وجهه العرب بعد فتحهم الاندلس

٦

﴿ تعاقب الولاة ﴾ ثم ولي الانداس عبد الملك بن قطن وخلفه عقبه بن الحجاج السلولي وقد حاول كلاهما الاخذ بالثأر من الافرنج فعجزوا عن ذلك . وكان الامل قد عاد الى الاسبانيين فهاجموا العرب من الجبال وكسروهم عدة مرات . فاخذ عقبه يستعد لغزوة بلاد الفرنك غزوة كبرى واذا بامر ورده من والي افريقية وهو العامل الكبير عليها وعلى الانداس بعبور البحر الى افريقيـة لاخماد ثورة الخارجين من المغار به والبربر . وكانت هذه الثورة شديدة فعبر عقبه البحر اليهم وكسرهم شر كسرة . فاغتنم شارل مارتل هذه الفرصة وحصر المراكز العربية مما يلي جبال البيرينه خارج اسبانيا وهي نربون ومغلون واجده وبزبير ففتحهـا . ثم اعيد منصب الولاية الى عبد الملك بن قطن بعد ان حكم عقبه الاندلس حكماً عادلاً . فحدث في افريقية في عهده قتال شديد بين العرب والبربر فاضطر عشرون الفاً من العرب الى عبور البحر الى الاندلس ولما وصلوا اليها قتلوا عبد الملك لانه لم ينجدهم على اعدائهم وولوا على الاندلس احد قوادهم واسمه بلج فانكر هذه الولاية قائد ثان لهم وخرج على الوالي وكذلك صنع المغاربة والبربر المقيمون في الاندلس فثارت بين الجميع حروب اهليـة شديدة انتهت بمقتل بلج وولاية عبد الرحمن بن خطار الذي قتله بيده ولذلك تلقب (المنصور) فاخذ الوالي الجديد في الضرب على ايدي البربر الخارجين على والي افريقية تأييداً لسلطنته

ثم ولي الاندلس ابو الخطار حسام بن ضرار الكلبي . وسبب توليته ثلاثة ابيات من الشعر قالها فاعجب بها هشام بن عبد الملك فامر حنظلة بن صفوان الكلبي عامله في افريقية ان يوليه الاندلس . اما الابيات فهذا نصها

افادت بنو مروان قيساً دماءنا ... وفي الله ان لم يعدلوا حكم عدلُ
كانكم لم تشهدوا مرج راهط ... ولم تعلموا من كان ثم له الفضلُ
وفينا كُمُ حرّ القنا بنحورنا ... وليس لكم خيل تُعدُّ ولا رجلُ

فالعجب لزمن كان الشعر فيه يولي صاحبه ازمة البلاد ويحكمه في العباد

ولما وصل ابو الخطار الى الاندلس قبض على رؤساء الخوارج ثم امر باحصاء السكان واعطاء القبائل الرحل اراضي يحرثونها ويزرعونها وذلك لاغرائهم بالاقامة فيها وصرف خواطرهم عن التقاطع والتنازع فيما بينهم لان اهل الشام كانوا قد عزموا على مغادرة الاندلس والعودة الى اوطانهم . ولكن لم يلبث ان خرج عليه ثوابة بن سلمـه الحذافي احد عمال الاندلس الناقمين فحدث بين الفريقين قتال انتهى بهرب ابي الخطار وولاية ثوابة . فحكم ثوابة سنتين

حكماً سيئاً ثم توفي فعاد اهل الاندلس الى الاختلاف على الولاية وكان كلٌّ من الحضريين واليمنيين يطلب ان تكون الولاية فيه ولكنهم عادوا فاتفقوا على ان يكون والي الاندلس قرشياً فولي يوسف بن عبد الرحمن الفهري

وكان هذا الرجل عظيم القدر واسع الاطلاع محباً للعدل والانصاف فاصلح احوال الاندلس اصلاحاً يُذكر فانه قسمها الى خمسة اقاليم : الاول اقليم الاندلس ويسميه الافرنج « اندالوس » والثاني اقليم طليطلة ويسميه الافرنج اليوم « اقليم قرطجنه » والثالث ماردة ويسمونه اليوم « لوزيتانياوغاليسيا » والرابع سرقسطه ويسمونه اليوم « تاراكونيزيا » ثم انه طاف في هذه الاقاليم كلها واخذ ينشيء فيها الجسور « الكباري » ويصلح الطرق ويبني الجوامع والمساجد وما زال على هذه الهمة والسعي المشكور حتى حدثت الفتنة المشهورة بين بني امية وبني العباس في الشام

٧

﴿ دولة الامويين في الاندلس ﴾ ولما سقطت دولة الامويين في بلاد الشام وقامت دولة العباسيين وتقررت الخلافة للسفاح اول خلفائها جعل السفاح يطارد الامويين قتلاً وتشريداً وفي ذلك روايات وحكايات لا محل لذكرها هنا . فكان لتلك الحادثة العظيمة رجع صدى في الاندلس اذ قام العرب والبربر فيها بعضهم على بعض ففريق مع العباسيين وفريق مع الامويين وشبت بينهم نيران حروب اهلية كادت تفضي الى ضعضعة سلطة المسلمين في اسبانيا لولا قدوم عبد الرحمن بن معاوية احد الامراء الامويين اليها فراراً من وجه العباسيين في المشرق . فجمع هذا الامير حول لوائه بعض القبائل الشامية والمصرية والبربر فضلاً عمن كان في صحبته من الاعوان وهاجم يوسف الفهري عامل العباسيين فهزمه ثم قصد قرطبة العاصمة ففتحها ونادى بنفسه اميراً للاندلس ولم يسم نفسه خليفة لانه كان ممن بايعوا خليفة العباسيين في المشرق . ويسمي الافرنج هذا الامير عبد الرحمن الاول لانه اول امراء بني امية في الاندلس ويسميه العرب عبد الرحمن الداخل لانه اول من دخل اليها منهم . وكان ذلك في عام ٧٥٦ للميلاد

ولكن انصار العباسيين في الاندلس اصروا على عدائهم للامير عبد الرحمن واستنجدوا بالفرنك عليه فزحف شارلمان الكبير ملك الفرنك لانجادهم فعبر جبال البيرينه في عام ٧٧٧ وفتح بمبلونه ولكنه اضطر الى النكوص فهزم الفسكونيون مؤخرة جيشه في واقعة رونسفو المشهورة هزيمة شديدة قُتل فيها البطل رولاند وقد بنى كورنيل على هذه الواقعة رواية

« شارلمان » التي نقلها المرحوم اديب بك اسحق الى اللغة العربية

٨

﴿ بلوغ التمدن الاسلامي اعلى ذراه في الانداس ﴾ ومنذ هذا الحين بدأ في الانداس عصر جديد . عصر تمدن زاهر وعز مقيم . فان الامير عبد الرحمن اخذ يزين عاصمته احسن زينة غيرة من العباسيين في بغداد فانفق ٨٠ الف دينار على انشاء قصر له وعلى وضع اساسات جامع قرطبة المشهور وقد توفي دون ان يتمها . فخلفه ابنه هشام في عام ٧٨٨ ويسميه الافرنج هشام الاول ثم خلفه الحكم بن هشام في عام ٧٩٦ ويسمونه الحكم الاول ثم خلفه ابنه عبد الرحمن الاوسط في عام ٨٢٢ ويسمونه عبد الرحمن الثاني ثم خلفه ابنه محمد في عام ٨٥٢ ويسمونه محمد الاول ثم خلفه ابنه المنذر في عام ٨٨٦ ثم خلفه اخوه عبد الله في عام ٨٨٨ . ولكن حكم هؤلاء الامراء جميعاً كان في مدة القرن الذي انقضى عليهم مضطرباً جداً لان الافرنج كانوا يهاجمونهم من جانب وانصار العباسيين من جانب . وما زال الحال على هذا المنوال حتى قام عبد الرحمن الثالث وحفيد الامير عبد الله اخي المنذر الذي تقدم ذكره

وكان عمر عبد الرحمن عند قبضه على ازمة الامارة ٢١ عاماً فكان مع صغر سنه شهماً هماماً ورجلاً من خيرة الرجال فاقدم على ما احجم عنه اجداده فتلقب بالخلافة وسمى نفسه امير المؤمنين ثم ضرب النقود باسمه وامر ان يُخطب باسمه في الجوامع ويقال انه منع رعيته من الحج لئلا يصادرهم العباسيون . وبذلك قطع كل صلة بين الانداس وبغداد . وقد حكم هذا الامير من عام ٩١٢ الى عام ٩٦١ اي ٤٩ عاماً فبلغت اسبانيا في حكمه مبلغاً من التمدن لم تعرفه قبل ذلك العهد ولا عرفته بعده فانه نشر لواء العدل والامن في البلاد واعلى منار العلم حتى جعل الشعراء يقولون في وصف قرطبة

باربع فاقت الامصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادي وجامعها
هذان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم اعظم شيء وهو رابعها

فبارك الله في عصر كان ابناؤه يعدون العلم خير ما يُقتنى واعظم ما يُجتنى

اما الجامع العظيم الذي ذُكر في هذين البيتين فقد تقدم ذكره واما الزهراء فهي جنة فيحاء بل فردوس ارضي انشأه عبد الرحمن على مسافة ٥ اميال من قرطبة بناء على طلب جارية له تسمى « الزهراء » وكان شديد الشغف بها . وقد بنى الزهراء في بدء بنائها قصراً للاقامة فيه ثم توسع في البناء فبنى بازاء القصر مدينة تحت جبل يسمى جبل العروس وقد

غرسه اشجاراً مثمرة كالتين واللوز . وقد قدر بعضهم انه كان ينفق على بناء هذه المدينة ٣٠٠ الف دينار في كل يوم وقد دام هذا الانفاق ٢٥ عاماً . وقد طلب لها الرخام من اقطار العالم ابيض ومجزعاً وسماقياً وغير ذلك وانشأ فيها حياض المياه مزينة بالتماثيل الرخامية والذهبية وحفر فيها بحيرة وضع فيها الاسماك المختلفة وقد روى بعضهم انه كان يُخبز لهذه الاسماك في كل يوم ١٢ الف خبزة ويُنقع لها في الماء ستة اقفزة من الحمص الاسود

وقد طارت شهرة عبد الرحمن الى اوربا فجاءته الوفود من المانيا واليونان استرضاء له . وبلغت الاندلس في عهده اقصى درجاتها من الحضارة والمجد في العلم والصناعة والتجارة والفنون . اما في العلم فقد بعث عبد الرحمن الى القسطنطينية وكان امبراطورها القيصر رومانوس والى بلاد العرب ومصر وفارس وافريقية وغيرها باناس لشراء الكتب ونسخها وترجمتها كما صنع الافرنج بالكتب العربية بعد زوال دولة الاندلس . ويقال انه كان في الاندلس ٧٠ مكتبة للمطالعة . اما مدارسها فكانت اشهر من ان تذكر وقد قيل انه كان في قرطبة وحدها ثمانون مدرسة كبرى يُعلم فيها جميع العلوم الدينية واللغوية التي تُعلم الآن في الجامع الازهر الشريف وفوق ذلك الرياضيات بانواعها والتاريخ والجوغرافيا وعلم الفلك والطب والصناعة وما شاكلها . وكانت المدارس العربية الاسلامية كما قال العالم جفراي منتشرة من اقاصي بخارى الى افريقية فالاندلس تنشر في العالم نور المدنية والعرفان فتصلح ما يكون السيف قد افسده . ولم يعرف الافرنج فلسفة اريسطو في القرون الوسطى الا من الكتب التي الفها العرب وترجموها . وكان كل واحد من خاصة الناس وعامتهم في الاندلس يتباهى باقتناء مكتبة ويزينها بالكتب . وقد اقبل الناس من اوربا افواجاً على الاندلس للدراسة في مدارسها منهم الراهب جوبرت الذي ارتقى بعد ذلك الى العرش البابوي باسم البابا سيلفسترس الثاني فانه تلقى العلم في مدارس قرطبة واشبيلية ولما عاد الى بلاده ادهش الناس بالمعارف الجديدة التي نقلها اليهم

واما صنائعهم فاشهرها الفنون الجميلة التي لا يزال آثارها في الاندلس شاهداً للمدنية الاسلامية التي قامت فيها . وقد اشتهرت مالقه بصنع الخزف المذهب اشتهار مدينة سفر الفرنسوية اليوم . وامتازت المرية بصنع الديباج الجميل وآلات الحديد والنحاس والزجاج وكان فيها الف حمام وفندق وكانوا يغرسون التوت في جوارها ويربون دود الحرير . واشتهرت اشبيلية بسعة تجارتها وباغراس الزيتون والتين فيها حتى لقد قيل ان الماشي كان يمشي في ظل هذه الاشجار اربعين ميلاً . واشتهرت اشبونه بالعنبر والمسك وباجه بمعدن

الفضة والدباغة وصناعة الكتان وشتره بخصب ارضها حتى انه روي ان كل تفاحة من تفاحها كانت استدارتها ثلاثة اشبار والله اعلم . وامتازت شاطبه بصنع الورق وامتاز غيرها بغيره مما يطول ذكره . وكان في جاين ٦٠٠ معمل لصنع الحرير وفي المرية ٦ الاف آلة لنسج الانسجة القطنية والصوفية والكتانية وفي بايزه معامل للسجاد وفي قرطبة وموريس وطليطلة وسرقسطه معامل للجلد والاسلحة والحلي الثمينة . وكل هذه البضائع كانت تصدر الى اوربا وافريقية وغيرها كما تصدر اليوم المصنوعات من اوربا الى جميع اقطار العالم . فسبحان مغير الاحوال

وكان الاندلسيون عارفين بصناعة استخراج المعادن من الارض فاستخرجوا من بلادهم الذهب والفضة والنحاس والحديد والبلور والياقوت والقصدير وغيرها

ويروي مؤرخو الافرنج انه كان بقرطبة وحدها مائتا الف منزل و٨٠ الف قصر و٩٠٠ حمام ومدارس وجوامع لا عدد لها وقد بلغ سكانها مليون نسمة فيما يقال

وقد كان عدد العملة في معامل اشبيلية وحدها مائة الف عامل وقد سماها اهل الشام « حمص » لحنينهم الى هذه المدينة وسائر اوطانهم الشامية وفيها يقول الشاعر

خليليَّ بادر بي الى النهر بكرة وقف بيَ حيث المد يثني عنانه
ولا تجز « الارحا » لان وراءها بيابًا وعيني لا تريد عيانه

واما غرناطه فقد كانوا يسمونها « دمشق الغرب » او « قطعة من الجنة هبطت من السماء » ولا يزال الاسبانيون يقولون في امثالهم عنها « من لم يرَ غرناطه فانه لم يرَ شيئًا » وقد سماها الافرنج « غرينادا » اي « رمانة » لانها مبنية على ثلاثة آكام متراكزة كاجزاء الرمانة اذا فُلقت . وقد حرفها العرب فجعلوها « غرناطة » في جملة ما حرفوه مما لا فائدة من متابعتهم فيه اللهم الا ان يكون الاسم نفسه من موضاعاتهم فيجب الرجوع اليه كقول الافرنج « كالاتيود » وصوابه قلعة ايوب التي مرَّ ذكرها و« ترافلكار » وصوابه طرف الغار وهلم جرًا

اما العلماء والفلاسفة والكتاب والشعراء الذين نبغوا في ذلك الزمن فحدث عنهم ولا حرج . وربما افردنا لهم مقالة على حدة لاستيفاء الكلام على تراجمهم . واشهرهم كلهم الفيلسوف العربي ابو الوليد محمد بن احمد بن رُشد المالكي القرطبي الذي ترجم مؤلفات اريسطو وكان يقول عنه انه اشهر فلاسفة الارض . وقد كفَّره معاصروه واتهموه بانه يجحد القرآن فنفي من اشبيلية فاستدعاه سلطان المغرب للوقوف على حكمته وفلسفته . ومن

مشاهير الاندلس ايضاً ابو العباس وابن جابر الرياضي الذي ينسب العرب علم الجبر اليه وابن الخطيب وابن جبير وغيرهم كثيرون يستغرب الافرنج كثرتهم ولا يصدقون عددهم . وقد قال مؤرخوهم ان السبب الذي يصح ان يُعدّ من اقوى اسباب سقوط دولة العرب في اسبانيا هو تغلب الفقهاء على العلماء وتكفيرهم كل من خالف اقوالهم كما حدث لابن رشد . وقد حاول فقهاء المسيحيين اي علماء اللاهوت عندهم ان يصنعوا بعلمائهم في اول النهضة العلمية الاوربية ما صنعه فقهاء العرب بعلمائهم فتغلب العلماء عليهم وبذلك انتصر العلم الانتصار الباهر الذي نرى ثماره في هذه الايام

٩

﴿ تدلي التمدن في الاندلس ﴾ وبعد وفاة عبد الرحمن الثالث الذي نلقبه عبد الرحمن الكبير لان التمدن العربي بلغ اشده في الاندلس في ايامه خلفه ابنه الحكم الثاني في عام ٩٦١ وتلقب بالمستنصر فحارب الافرنج وقهرهم على طلب الصلح ثم ارسل عاملاً له الى افريقية ليفتحها وينشر نفوذ الامويين فيها وكان بلاطه غاصاً بالعلماء والشعراء والكتاب . قيل وقد احصيت الاندلس في ايامه فكان عدد مدنها ٨٠ مدينة كبرى و٣٠٠ مدينة صغرى وبلغ عدد قراها ومزارعها ١٢ الفاً اما جبايتها فقد بلغت ٦ ملايين دينار . وقال بعضهم بل كان في وادي « قضا الكبير » وحده ١٤ الف قرية ولا يخفى ما في ذلك من الغلو . ثم توفي في عز وجاه وذلك في عام ٩٧٦ فخلفه ابنه هشام الثاني الذي تلقب المؤيد وهو فتى صغير فاستوزر محمداً بن ابي عامر وكان رجلا شديد البأس فقبض على ازمة الملك دون ان يعبأ بالخليفة فبقي هشام تحت سلطته . وقد حارب ابو عامر الافرنج فقهرهم اولاً ثم قهروه في معركة كبرى فجرح فيها ومن شدة حزنه ابى مداواة جرحه فمات بسببه . فخلفه اخوه عبد الملك الذي تلقب بالمظفر فابقى الحجر على المؤيد ثم توفي فخلفه اخوه عبد الرحمن فاخذ عهداً من المؤيد بالتنازل له عن الخلافة فثار لذلك الامويون وخلعوا المؤيد وبايعوا محمداً بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر فحدثت بين الفريقين بسبب الخلافة والتنازع عليها حروب جعلت قرطبة فوضى بلا وازع ولا رادع . ومنذ هذا الحين ابتدأ التمدن الاندلسي يتدلى ويهبط بعد بلوغه اوج المجد والعظمة

فلما رأى الافرنج انقسام العرب وتفرق كلمتهم اجتمعوا مع تفرقهم لمقاتلتهم واخراجهم من اسبانيا . وكان قد تالف في شمال اسبانيا وغيرها من الجهات التي تلي املاك العرب فيها ممالك صغيرة اهمها مملكة استوريا ومملكة نافاريا وكونتيه برشلونه ومملكة غاليسيا وكاستيل

واستعدت لمقاومة العرب . فلما راى العرب هذا الخطر اتفقوا بعد تفرقهم واستنجدوا على خصومهم بيوسف بن تشفين صاحب بلاد المغرب الذي لقب نفسه « امير المسلمين » . وكان الافرنج قد قدموا عليهم الملك الفونس السادس ملك غاليسيا وكستيل فقدم يوسف بن تشفين بجنوده المغاربة وكسره شر كسرة . ثم اضطر يوسف الى العودة الى افريقيا فعاد الامل الى الافرنج فلما سمع يوسف بذلك عاد اليهم ولكنّ امراء الاندلس كانوا قد تغيروا عليه وعلى رجاله لان الذوق العربي لم يكن يألف ذوق البربر فقاتلهم يوسف وتغلب عليهم وولى ابنه الامارة تحت سيادة العباسيين

وكانت الحروب في افريقيا قائمة قاعدة في ذلك الزمان فلم يتمكن خلفاء يوسف وابنه من حفظ اسبانيا فقويت امارات الافرنج على العرب فتفرق امر العرب واستقلّ كل والٍ بالاقليم الذي كان يديره شؤونه . فتهافت الافرنج على الاقاليم الاندلسية واخرجوها من ايدي العرب في القرن الثالث عشر واحداً بعد واحد وكان آخرها اقليم غرناطه . وقد زالت سلطة العرب من الاندلس في اوائل القرن الخامس عشر (سنة ١٤٩٢) وكان ملك كاستيل هو عدوها اللدود الذي لم نقوَ عليه . وهكذا زال ذلك الملك الضخم والمجد العظيم . وسبحان محيي الدول ومميت الدول انه الحيّ الباقي وحده

١٠

﴿ سلطنة المغرب اي مراكش ومسالة جبل طارق ﴾

﴿ سلطنة المغرب اي مراكش ﴾ ولما قامت الدولة الاموية في الاندلس قامت دولة اخرى في افريقية وتُعرف بدولة الفاطميين . وهي خلافة شيعية لاهل ابي طالب نشأت في بلاد المغرب وكانت شاملة مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب . واما السبب في نشأتها فهو ان العباسيين لما اخذوا يقاومون بني امية لاخراج الخلافة من ايديهم كان العلويون يحسبون انهم يصنعون ذلك انتقاماً لعلي (رضه) وانهم سيعيدونها اي الخلافة الى آله . وكان كثيرون من المسلمين يرون انه متى سقط الامويون وجب مبايعة العلويين لان الخلافة لهم . فلما اسقط العباسيون الامويين واستأثروا بالخلافة غضب لذلك آل ابي طالب فصار الخلفاء العباسيون يضطهدونهم اضعافاً لامرهم . فلما كانت خلافة المعتضد بالله العباسي كتب الى عامل له في بلاد المغرب ان يقبض على رجل يُدعى عبيد الله بن الحسين بن علي بن ابي طالب فقبض العامل عليه وسجنه . ولكنه تمكن من الفرار من سجنه فتكنى بابي محمد وادعى انه المهدي فصدقه المسلمون في الغرب وتبعوه فانشأ دولة في افريقية وخلافة

تعرف بالخلافة الفاطمية و بنى مدينة رقادة بالقرب من القيروان. وفيه قال ابن هاني الشاعر الاندلسي الذي كانوا يلقبونه متنبي الغرب تشبيهاً له بابي الطيب المتنبي الشاعر المشهور الذي كان من معاصريه

حلَّ برقادة المسيحُ حل بها آدمٌ ونوح
حلَّ بها الله ذو البرايا وماسوى ذاك فهو ريح

ولا عجب ان يغلو ابن هاني هذا الغلو فانه كان مشهوراً بالمبالغات ومنها قوله في مدح المعز لدين الله حفيد المهدي المذكور

هو علة الدنيا ومن خُلقت له ولعلةٍ ما كانت الاشياء
ليست سماء الله ما ترأونها لكن ارضاً تحتويه سماء

وقال فيه ايضاً

ارى مدحه كالمدح لله انه قنوت وتسبيح يُحطُّ به الوزر

وقال

ما شئتَ لا ما شاءت الاقدار فاحكم فانت الواحد القهار
وكانما انت النبي محمد وكانما انصارك الانصار
انت الذي كانت تبشرنا به في كتبها الاحبار والاخبار
انت الذي تجدي شفاعته غداً حقاً وتُحمد ان تراه النار

وقد يكون للاديب ابن هاني الشاعر المطبوع عذر في مدحه المهدي بالالوهية لانه كان يزعمها ولكن ما عذره في مدح حفيده المعز هذا المدح البارد

ولكن فلنترك الآن الشعر ولنعد الى الدولة الفاطمية التي قدمنا هذه المقدمة لها. فان هذه الدولة قد عظمت في افريقية وعجز العباسيون عن مناواتها وقد ساعدها بنو امية من الاندلس نكاية بالعباسيين ففتحت القطر المصري على يد القائد جوهر في عهد المعز لدين الله الذي تقدم ذكره بعد موت كافور الاخشيدي وفي ذلك يقول ابن هاني

يقول بنو العباس هل فُتحت مصر فقل لبني العباس قد قُضي الامرُ
وقد جاوز الاسكندرية جوهرٌ تطالعه البشرى ويقدمه النصرُ

ولما فتح جوهر مصراً شرع ببناء القاهرة وجامع الازهر ثم نقل اليها المعز كرسي الخلافة. وما زالت دولة الفاطميين حتى انقرضت فاستقل كل عامل بعمله في مصر وتونس والجزائر و بلاد المغرب وفي القرن السادس عشر تولى بلاد المغرب احد اشرافها وهو جد الاسرة المالكة اليوم

ومراكش سلطنة واسعة لا تزال مجهولة . وعدد سكانها اليوم ٨ ملايين نفس وهم مؤلفون من عرب و بربر ومغاربة وزنج ويهود وعاصمتها مدينة مراكش وعدد سكانها خمسون الف نفس . وقد سميت مراكش من قبيل تسمية الكل بجزء منه لان مراكش في الاصل اسم مدينة بناها يوسف بن تشفين امير المسلمين الذي تقدم ذكره في تاريخ الاندلس وذلك في عام ٤٥٤ للهجرة . وقد بنى هذه المدينة في غابة كثيفة كانت ملجأ للصوص فكان السكان اذا مروا بها قالوا (مرّاكش) اي مرّ مسرعاً فسميت تلك المدينة بهذا الاسم

﴿ مولاي عبد العزيز ﴾
سلطان مراكش الحالي مع دراجته المولع بركوبها

وسلطانها الحالي مولاي عبد العزيز وهو شاب نشيط محب للتمدن الحديث ومولع بمصنوعاته كالدراجات والفونوغراف والتصوير الشمسي . ويقال ان سفراء الدول يتزاحمون في بلاطه بواسطة هذه الاشياء فمن اهداه منها هدية اثمن وافضل من هدية الثاني علا نفوذه على نفوذه في البلاط وسهلت اعمال دولته . وقد رُسم السلطان في هذا الرسم مع دراجته

اما المزاحمة في بلاطه بين سفراء الدول فهي شديدة لان للدول الاوربية مطامع في مملكته . وهذه المطامع تنحصر بين فرنسا وانكلترا واسبانيا والمانيا . اما فرنسا فانها تحدثها نفسها بضم سلطنة مراكش الى الجزائر كما تُضم برقالة الى برقالة اكالاً لسلطنتها الافريقية . واما انكلترا فانها تطمح على الاقل الى ثغر طنجه تأبيداً لمركزها في جبل طارق والبحر المتوسط

١١

﴿ جبل طارق القديم والحديث ﴾ ذلك لان جبل طارق مفتاح البحرين : البحر المتوسط والبحر الاتلانتيكي . وهو قائم في الشاطىء الاوربي فوق مدينة صغيرة سميت باسمه وعدد سكانها لا يتجاوز ٣٠ الف نسمة . اما مرفأ هذه المدينة وهذا الجبل فهو اعظم مرفأ حربي

في العالم فان اهميته في التجارة توازي اهمية مرسيليا والبضائع تدخل اليه من غير رسوم لانه مرفأ انكليزي ولكنها توزع منه في اسبانيا وغيرها على سبيل التهريب فتضر باسبانيا ضررًا ماليًا كثيرًا ما شكت منه . وقد كان هذا الجبل وهذه المدينة لاسبانيا قبل عام ١٧٠٤ ولكن الاميرال روك الانكليزي هجم على جبل طارق في هذا العام واحتله احتلالاً وقتيًا بينما كانت اسبانيا في مشاغل وحروب والى اليوم لم تخرج انكلترا منه . ويسمى راس هذا الجبل الداخل في البحر « راس اوروبا » وقد وضع الانكليز في جوفه مدافع كبرى تقطع الطريق على السفن دون ان تراها السفن وانشئوا فيه انفاقًا وحفائر للمؤن والنوم والاقامة فكأنما داخل الجبل المذكور مدينة جديدة غير المدينة التي في سفحه . ويقيم في جوف هذا الجبل ٦ الاف جندي كحامية دائمة لا تفارق مركزها . ويقول بعض الانكليز انه ليس في العالم كله قوة قادرة على الاستيلاء على هذا المركز ولا على المرور من امامه اذا شاء ان لا تمر . ويقول البعض الآخر ان ذلك وهم فان الاسطول اذا كان قويًا وعلى الخصوص سريعًا استطاع النجاة بنفسه دون ان يعبأ بمدافع جبل طارق

وبجانب جبل طارق ثغر « الجزيرة » وثغر « طريف » وهما لاسبانيا كما ترى في الرسم وفي وجهه اي في مقابلته ثغر (سبته) على الشاطىء الافريقي وهو لاسبانيا ايضًا ولذلك يخشى الانكليز اذا اشتبكوا بالحرب مع احدى الدول ان تنحاز اسبانيا الى خصمهم فتدمر من « الجزيرة » ومن « سبته » المعاقل والحصون التي انشأوها في جبل طارق والسفن التي تكون لاجئة في مينائه . ولذلك قاموا في الشهر الماضي يشددون النكير على حكومتهم ويطلبون زيادة تحصين الجبل والميناء وانشاء احواض مستترة تلجأ اليها السفن ولا تصل اليها مدافع الاسبان ومحالفيهم (١) اما عرض المضيق بين الشاطىء الاوربي والشاطىء الافريقي فانه يبلغ ١٣ كيلو مترًا واذا وقف رجل على احدهما استطاع رؤية الواقف على الشاطىء الثاني . واما عمق البحر في هذا المضيق فانه ٩٠٠ متر على الاكثر و ٣٠٠ متر على الاقل . ويزعم الاقدمون ان البطل هرقل اليوناني هو الذي حفر هذا المضيق لوصل البحر المتوسط بالاوقيانوس واما العلماء فانهم يزعمون ان ذلك المضيق كان ارضًا يابسة تصل اوروبا بافريقيا بين البحر المتوسط والاوقيانوس الاتلانتيكي فجعل هذان البحران يصدمانه ويفتتانه ويجتاحان فتاته حتى تلاقيا واتصلا فانشئا هذا الخليج . على ان هذا الزعم يثبت ان فرديناند دي لسبس قد عمل عملاً قبل اوانه . لانه لو لم يحفر ترعة السويس منذ سنوات مضت لحفرها الزمان بعد مئات من السنين

(١) وسينفقون لانشاء هذه التحصينات الجديدة اربعة ملايين و ٨٢٠ الف جنيه

وكان جبل طارق يسمى قبل نزول طارق فيه جبل « كالبه »

١٢

هذه هي اليوم بوجه الاجمال حالة سلطنة المغرب التي كان لها الحول والطول في ايام دولة الاندلس يوم كان واليها والياً عليها وعلى الاندلس معاً . ولم نذكر شيئاً من احوالها الخصوصية وشؤونها الداخلية لان هذا المقال قد طال وضاق بنا المجال فضلاً عن استيفاء الجرائد اليومية البحث في هذه الاحوال . غير اننا نقول في الختام ان مراكش اذا سقطت في حبائل الدول الاوربية انتهى بذلك استقلال آخر دولة من الدول العربية واصبحت الحبشة في جميع اقطار افريقيا منفردة بنعمة الاستقلال والحرية

واذا نظرتَ الى البلاد رأيتها تشقى كما تشقى العباد وتنعمُ
والارض لله يورثها لمن يشاء وهو الفعال لما يريد

مدام بوثا ومدام كروجر

ذكرنا في صدر هذا الباب اننا سننشر في كل جزء ترجمة رجل وامرأة من مشاهير الرجال والنساء . وقد اخترنا لهذا الجزء المراة الفاضلة التي توجهت اليها في الايام الاخيرة انظار العالم المتمدن كله وصار اسمها في كل شفة ولسان لانها كانت الوسيط بين اللورد كتشنر قائد الجنود الانكليزية وزوجها الجنرال بوثا قائد جنود البوير في مسالة عقد الصلح . ثم سافرت من الترنسفال الى انكلترا فزادها هذا الامر اهمية لان الناس اعتقدوا انها مسافرة في مهمة خصوصية من قبل اللورد كتشنر وهي مقابلة كروجر واقناعه بوجوب اصدار الامر الى جنود البوير بالتسليم والكف عن القتال لانهم اصبحوا من الضيق في اسواء حال

﴿ مدام بوثا ﴾

واما الذين يعرفون اخلاق اللورد كتشنر فانهم اكدوا انه لا يمكن ان يعهد بمهمة رسمية الى النساء